الظّواهر الصوتية فوق التركيبية في العربية

*وليد حسين**

ملخص

هذه دراسة تتناول (الظّواهر الصوتية فوق التركيبية في العربية) وهي: التّنغيم والنّبر والطّول والمفصل. وقد جاءت هذه الدراسة في محورين اثنين، المحور الأول: اهتم بدراسة الجانب النّظري من الصوتيات فوق التركيبية، ابتداء من حديث عن صيرورة المصطلح في الدرس اللّساني الحديث، فوقف على مصطلحين اثنين: الأول: ذو مرجعية لسانية اجتماعية وهو (prosody) والثّاني: ذو مرجعية لسانية بنيوية وهو (suprasegmental feature)، فبينت معناهما ووضحت البون بينهما.

ثم انتقلت الدراسة لتناول كل ظاهرة من هذه الظّواهر في التّراث اللّغوي العربي، فوقفت على المعنى الاصطلاحي لكلّ منها، ثم أخذت تستشرف مواطنها في وقائع الكلام. ويرفد هذا المحور النّظري محور تطبيقي تأصيلي يسبر متون كتب الأوائل باحثاً عن تشخيص لما نظّره المحدثون منطلقاً في ذلك من ملحظ مؤداه؛ أن الأوائل قد سبقوا المحدثين في كثير مما ابتدعوه من نظريات تصف اللّغة وتقعدها.

وينتهي هذا المحور الأخير باستنتاج مؤداه، أن علماءنا الأوائل عرفوا هذه الظّواهر وتنبهوا إلى دورها في نظام العربية، لكن هذا لا يعني بحال صدورهم عن نظرية صوتية شأن المحدثين.

الكلمات الدالة: الصوتيات فوق التركيبية، لسانيات حديثة، التنغيم، النبر، الطول، المفصل.

المقدمـــة

يتصير الكلام على ألسنة أبناء الكفاية في سيرورة تمتد رحاها وجهتين اثنتين: عضوية وذهنية. ففي عملية الكلام تشدو آلة الصواتة الإنسانية صوامت وصوائت ينعقد بها كلام البشر، ثم لا تلبث أن تنفصل؛ لتحملها تيارات الهواء فتستقر في صيوان الأذن موجات يفسرها الدماغ معاني ودلالات.

وإذا كانت الجماعة البشرية تستعمل النّظام الصوتي نفسه في التّواصل، فإن هذا لا يعني تماثل نظمهم الصوتية المستعملة، فثمة أصوات كلامية تختارها إحدى اللّغات؛ لتسجلها في نظامها الصوتي، وأخرى تهمل تلك الأصوات؛ لتخرجها من نظامها الصوتي.

ولعل هذا التّباين مرده إلى تواضع الجماعة اللّغوية على تطويع الجهاز الكلامي للنّطق بمجموعة محددة من الأصوات ذات سمات نطقية مميزة من ناحية، وإلى ثقافة الجماعة التي توجه الاصطلاح (convententionality)، على ألفاظ اللّغة بناء على خبراتها وتجاربها من ناحية أخرى؛ ولهذا نجد العلاقة - في كل لغة - بين الألفاظ التي تتكون من هذه الأصوات الكلامية وما تشير إليه من دلالات مادية ومعنوية هي علاقة عشوائية أو اعتباطية تعود إلى اتّفاق الجماعة وتواضعها، ومن هنا كان اختلاف اللّغات في تسمية الماديات والمعنويات.

وإذا كان سوسير يرى أن اللّغة نظام من العلامات (system of signs)أو ضرب من السلوك كما يقول بلومفيلد، فإن هذه العلامات التي تظهر في شكل كلمات، وهذا السلوك الذي يظهر في الطّريقة التي يتواصل بها أفراد المجتمع يتحققان بالصوت (voice)، وكما يقول الجاحظ: "إن الصوت آلة اللّفظ والجوهر الذي يقوم به التّقطيع، وبه يوجد التّأليف، ولن تكون الحروف كلاماً إلا بالتّقطيع والتّأليف"[(1)].

وإذا كان كلام الجاحظ يشير هنا إلى أن الصوت هو الجانب الجوهري في نظام اللّغة، فإنّنا نستنتج منه أيضاً أن الصوت يمكن أن يجزأ بالتّقطيع (Segmentation) إلى أصوات متباينة المخارج والصفات تُضم بالتّأليف (Combination) في نسق صوتي (phonological system) يؤلف الكلمات والتراكيب في النّثر والشّعر.

وما أشار إليه الجاحظ يمكن أن نجده بصورة أكثر تفصيلاً عند بعض اللّغويين المحدثين مثل ماريو باي الذي يقول: "إن الأصوات الصامتة والصائتة تُكون ما يسمى بجزئيات الكلام (speech segments) ولهذا توصف بأنّها فونيمات جزئية أو تركيبية (segmental phonems) أو فونيمات

---

* قسم اللغة العربية، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.
تاريخ استلام البحث 2008/1/14، وتاريخ قبوله 2008/11/17.

© 2009 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

أولية (primary phonems)، ويوجد إلى جانب ذلك ملامح صوتية إضافية تؤثر على الأصوات الكلامية أو مجموعاتها، وهذه يطلق عليها اسم الفونيمات فوق التركيبية (suprasegmental phonems) أو الفونيمات الإضافية أو الثانوية (secondary phonems) مثل: النبر والتّنغيم أو السكتات الكلامية والتي تكون في بعض الأحيان ذات أهمية للمعنى تماماً كأهمية الوحدات الصوتية الصامتة والصائتة في الحدث الكلامي[2].

وبناء على ما ذكره الجاحظ وماريو باي نجد أن ما ينطق به المتكلم من كلمات يتكون من سلسلة من الفونيمات الجزئية أو الأولية، إلى جانب الفونيمات فوق الجزئية أو الثانوية المصاحبة مثل: النبر، والتنغيم، والوقف، وهو موضوع درسنا في هذا البحث.

الفونيمات فوق التركيبية وصيرورة المصطلح

وفي سيرورة البحث عن مصطلح (الفونيمات فوق التركيبية) في الصوتيات الحديثة، يتوقفنا مصطلحان اثنان:

الأول: يصدر عن اللسانيات الاجتماعية، ومنظّرها الأول Firth.J.R، وهو المصطلح (Prosody).

والثّاني: يصدر عن اللسانيات البنيوية في أمريكا، ومنظّرها الأولLeonard Bloom Field ، وهو المصطلح (Supraseqmental feature).

إن هذين المصطلحين يتوحدان في الظّاهرة اللغوية التي يتعاملان معها، وهي الأصوات الكلامية خارج بنية اللّغة، غير أنّهما يفترقان في المرجعية التي يصدران عنها. فهل لهذه المرجعية المختلفة دخل في المعنى الاصطلاحي لكل واحد من هذين المصطلحين؟

يبين ديفيد كريستال (David Crystal) أن مصطلح (prosody) استعمل مقابلاً للمصطلح (Suprasegmental Feature) وهو يهتم بدراسة التنوعات الصوتية من تنغيم ونبر وطول، وأن فيرث هو أول لغوي استعمل هذا المصطلح في نظريته عن السياق اللّغوي[3] .

ويقرر فيرث أن دراسة الصوت اللّغوي لا بد أن تكون دراسة تأخذ بعين الاعتبار العلاقات السياقية أي ما يسمى بالسياق الصوتي (phonetic context) ، حيث تأخذ العلاقات والمتغيرات الصوتية حقها من الدراسة والبحث بحسب موقعها في درج الكلام لا من حيث هي وحدات منعزلة[4].

ويطلق بعض علماء الأصوات المحدثين على هذا النّوع من الدراسة (الصوتيات التجميعية) نظراً لعنايتها بالسلاسل الصوتية (Chains) والمقاطع (Syllables) والمجموعات (Groups)، وأشباه الجمل (Phrases) والجمل أيضا (Sentences) ودراسة ما يطرأ عليها من انحراف نطقي سببه السياق أو ما يسمى بالفصل والوصل (Phonetics of juncture)[5]، ويسميها آخرون فونولوجيا الكلام المتّصل (Combinatory phonology) ويسميها روبنز بالفونولوجيا البروسودية[6] (Prosodicphonology).

وأما اللّسانيات البنيوية في أمريكا فقد استخدمت مصطلحاً آخر هو (Suprasegmental Feature) فما دلالة هذا المصطلح؟

تأثّر بلومفيد صاحب المدرسة البنيوية الأمريكية في نظرته للّغة بالمنهج السلوكي (Behavicutism) الذي يرى أن لكلّ مثير استجابة، ويشرح واطسون (wattson) وهو المؤسس الحقيقي لعلم النّفس السلوكي مفهوم السلوكيين لعلم النّفس فيقول إنّه شعبة تجريبية موضوعية خالصة من العلم الطّبيعي، وهدفه النّظري التنبؤ بالسلوك وضبطه، وليس الاستبطان جزءاً أساسياً من مناهجه، لأنّنا لا نستخدم ألفاظاً ومصطلحات مثل الشّعور والحالات العقلية والذهن والمضمون والإرادة وما أشبه ذلك، وإنّما كل هذا يمكن أن تؤديه ألفاظ المنبه والاستجابة[7].

وتأسيساً على مبدأ المثير والاستجابة يعرف بلومفيلد اللّغة بقوله: إنّها قمة العمليات الحيوية الاجتماعية، بل هي المسؤولة عن تنظيم المجتمع الإنساني[8]، وحتى يتسنّى لبلومفيلد توضيح رأيه باللّغة، يأتي بقصة خيالية تحكي أحداث مثيرات سلوكية أحدثها جوع الصغيرة جيل، فكان من أخيها جاك أن استجاب لهذا المثير، ويرى بلومفيلد أن هذه الأحداث المتتابعة تصلح لأن تكون موضوعاً للدراسة من جوانب مختلفة.

وبناء على هذه المباحثة تتحدد الظّواهر اللّغوية الصوتية وفقاً لنوع المثير الذي يتأتى عنه الاستجابات على التعيين، فتنغيم وحدة ما، أو نبرها، أو إطالتها يكون استجابة للمثير السلوكي الذي أحدثها، فاللّغة - كما يراها بلومفيلد - ضرب من السلوك يفسره المثير والاستجابة.

التنغيم (intonation)

يعرف مصطلح التنغيم بأنّه التغيرات التي تحدث في درجة الجهر في الكلام المتصل[9]، أي إعطاء الكلام نغمات (tones)معينة تنتج من اختلاف درجة الصوت (pitch) النّاتجة عن التغيير في نسبة ذبذبة الوترين الصوتيين التي تحدث نغمة موسيقية[10]، فالتّنغيم بهذا المعنى يدل على العنصر الموسيقي في نظام اللّغة. ويرتبط التنغيم شأن الفونيمات فوق التركيبية بالنّظام الصوتي، أي أن كلّ لغة بل

كلّ لهجة تتميز بعادات نغمية مخصوصة، يقول أحد الباحثين: "انظر كيف أن اللّهجة المصرية اليوم هي أكثر اللهجات العربية موسيقية، وذلك لرسوخ قدم هذا الشّعب في الموسيقى، وانظر إلى اللّغة الإيطالية بالنّسبة إلى بقية اللّغات الأوروبية، وذلك أن الرجل المصري والرجل الإيطالي يعشقان الغناء، ألا ترى أن المصري يعرض بضاعته في الأسواق وهو يغني؟ والإيطالي يترنّم من أعلى سلمه وهو يمارس مهنته في البناء أو الطّلاء وغير ذلك؟ ولو سمعت الإيطاليين للاحظت أن المقطع الثاني (Amigu) عندما ينطقونه بكلمة mi يتّصف بالارتفاع والقوة والطّول، ونلاحظ ذلك في اللّهجة المصرية"[11].

إن المتكلمين باللّغة يستعملون نوعيات صوتية مختلفة، ونتيجة لذلك فإن الدرجات المستعملة في منطوق ما ستتغير إلى حد بعيد من متكلم لآخر، وما يهمنا في الوصف اللّغوي تغير تلك الدرجات ارتفاعاً وانخفاضاً، (أي اللحن الذي ينتجه تغير تلك الدرجة).

وتتباين اللّغات في نظمها الصوتية، فهناك اللّغات التّنغيمية (intonational languages) وهي اللّغات التي تستعمل النّغمات على مستوى المركّب أو الجملة، من الأمثلة على هذا النّوع: اللّغة العربية والإنجليزية والفرنسية والروسية والإسبانية والهندية والأندونيسية وغيرها.

إلى جانب هذا النّوع من اللّغات، هناك لغات تستعمل النّغمات على مستوى المورفيم أو الكلمة، وهي التي تسمى باللّغات النغمية (tone languages) مثل: اللّغة اللتوانية في شمال روسيا والصربية، والكرواتية، والسويدية، والفنلندية[12].

وتتمثل أهمية التنغيم في كونه الجسر المباشر الذي ينقل المعنى في عملية التّواصل في الكشف عن مواقف المتكلّم بطرق لا يمكن للمعلومات المعتمدة على الوحدات الصوتية وحدها أن تقدمها، وهو بذلك يؤدي وظيفتين متداخلتين: لغوية وأخرى غير لغوية.

أما اللغوية فبالتنغيم يمكن للسامع أن يميز المعنى المراد، ذلك أنّه يستعمل لرفع الغموض النّحوي. وأما غير اللّغوية فهي مبنية على الأولى؛ ذلك أن التنغيم يهيئ للمتكلّم على مستوى صوتي أن يبدي ما يعمل في نفسه من مشاعر، وبهذا يكون التّنغيم في سياقه الحي محملاً بمعان غير لغوية متضامة مع مثيلتها اللغوية لتشخص المعنى المراد.

ويشير جليسون في حديثه عن أهمية التّنغيم في التّركيب بقوله: "يؤدي نظام التّنغيم في اللّغات وظيفة نحوية مهمة، فهو الوسيلة المثالية التي تخدم علم اللّغة الوصفي، ويظهر أثره بوضوح في مجال دراسة التّراكيب، ذلك أنّه وسيلة صوتية تسعى للاستغناء عن الأدوات واللّواحق التي تنقل البنى الصوتية لتحديده اتجاه الدلالة، بل إنّه عنصر من العناصر الإبلاغية في دراسة النّماذج الأدبية الرفيعة في اللّغات الحية[13]، لذلك فقد وصلت الخصيصة الموسيقية ذروتها في التركيب القرآني[14].

وإذا كان التّنغيم يعتمد على درجة الصوت (Pitch) فهذا يعني أنّه ذو مستويات متباينة كأن يكون تنغيماً عالياً أو هابطاً أو محايداً، وقد يقع هذا كله على مستوى الجملة أو الكلمة[15].

فقد يتساءل أحدهم في سياق موقف كلامي فيقول: (هل ليلى في الدار) ويسأل آخر السؤال نفسه بأداءٍ آخر فيقول: (ليلى في الدار) فهاتان الجملتان تحملان معنى واحداً وهو السؤال عن وجود ليلى في الدار، الأولى: مصدرة بأداة استفهام جرياً على قواعد العربية في بناء جمل الاستفهام، والثّانية: خالية من أداة الاستفهام تتّخذ من التّنغيم استبدالاً له.

فإذا نطق أحدهم فقال: (جميلة) بنغمة مستوية، دلّت على أنّه يريد الإخبار عن جمالها، فإذا استبدل بالنغمة المستوية نغمةً صاعدة تحولت دلالة الجملة إلى الاستفهام أو التعجب، ولو جئنا إلى جملة من مثل: "ماذا تقرأ، شكسبير؟"[16]. فنطقنا كلمة شكسبير بنغمة مستوية لدلت على النّداء، ولو استبدلنا النّغمة المستوية بصاعدة لتحولّت دلالته من النّداء إلى الاستفهام أو التعجب، ولو غيرنا هذه النّغمة الصاعدة إلى نغمةٍ مستويةٍ هابطة، لدلّت على السخرية.

وقد يقع التّنغيم على جملة مصدرة بأداة من أدوات الإنشاء كالنّداء أو الاستفهام أو النّهي، فيغير من دلالتها، فجملة الاستفهام إذا نطقها المتكلّم بنغمة مستوية دلّت على التقرير والإخبار نحو قوله تعالى: "هل في ذلك قسم لذي حِجر"[17]، فإذا استبدلت بهذه النّغمة نغمة صاعدة تحولّت الجملة إلى معنى الأمر كما في قوله تعالى: "فهل أنتم منتهون"[18] وكذا الحال إذا نطقت الجملة الاستفهامية بنغمة هابطة حيث تكتسب الدلالة على التمنّي كما في قوله تعالى: "هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله"[19]، وجملة النّداء إذا نطقها المتكلم بنغمة مستوية دلّت على طلب الانتباه، كما في قوله تعالى: "يا أيها المدثّر"[20]، فإذا استبدلت بالنغمة نغمة هابطة، دلت على الحزن كما في قوله تعالى: "فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه"[21]، وجملة النّهي إذا نطقها المتكلّم بنغمة صاعدة، دلّت على الإهانة، كما في قوله تعالى: "قال اخسئوا فيها ولا تكلّمون"[22]، وإذا استبدلنا بهذه النّغمة نغمة مستوية صاعدة، دلّت على التيئيس كما في قوله تعالى: "لا تعتذروا إليهم"[23].

مظاهر التنغيم عند اللسانيين الأوائل

صرف اللسانيون العرب الأوائل جلّ اهتمامهم إلى دراسة الظّاهرة اللغوية بكافّة مستوياتها، فوضعوا القواعد وصنّفوا من المصنّفات ما يشرح القواعد ويبين المسائل.

وقد تنبه علماء العربية إلى أهمية التّنغيم في التّحليل اللّغوي للسياق المنطوق كل حسب منهجه وطريقة درسه. فنجد سيبويه يتفطّن لأثر التّنغيم في توجيه الوحدات اللّغوية في السياق والانتقال الأسلوبي بين الأبواب النّحوية. يقول سيبويه في تحليله لبيت جرير:

أَعبداً حل في شُعبي غَريباً أَلؤْما لا أَباَلك واغتِراباً

"وأما (عبداً) فيكون على ضربين: إن شئت على النّداء، وإن شئت على قوله (أتفتخر عبداً) ثم حذف الفعل"[24]، فالتّنغيم في الجملة هو الذي يحدد ما إذا كانت من باب النّداء أو الاستفهام، ومنه قوله: "تالله! وفيها معنى التعجب"[25]، فأداة القسم في هذا التّركيب تدلّنا على أن هذه الجملة جملة قسم، غير أن تغير تنغيمها يؤدي إلى تحول دلالتها إلى التعجب.

إن دراسة ظاهرة التّنغيم عند سيبويه تؤكّد صواب منهجه الوصفي في تحليل التراكيب اللغوية آخذاً بنظر الاعتبار أن القرائن اللفظية والمعنوية هي تكامل في النّظرية اللّغوية القائمة على نظام دقيق يتحكّم في تبادل التّأثير العلائقي بين مكونات التّركيب الأسلوبي[26].

ونجد الفراء قد اتّخذّ من قواعد العربية والشّواهد الشّعرية وسلوك القراء في طرائق التّجويد القرآني وسيلة منهجية في توجيه الظّاهرة القرآنية، فقد كان بحثه ذا منهج تطبيقي يأخذ بزمام الصوت واللّفظة المفردة ودلالة التّركيب في دراسة نص القرآن الكريم[27]. ومن جوانب التّنغيم عنده تحول الأساليب، ومن ذلك قوله تعالى: "أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم"[28]، يقول: "هذه واو نسق أدخلت عليها ألف الاستفهام كما ندخلها على الفاء، فنقول: أفعجبتم، وليست بأو، ولو أريد بها أو لسكنت الواو"[29]، وفي قوله تعالى: "أشهدوا خلقهم"[30]، يقول: "نصب الألف من (أشهدوا) عامة والأعمش، ورفعها أهل الحجاز على تأويل: أشهدوا خلقهم؛ لأنّه لم يسم فاعله، والمعنى واحد. وقرؤوا بغير همز يريدون الاستفهام"[31]، ويفسر قوله تعالى: "أذهبتم طيباتكم"[32]، يقول: "والعرب تستفهم بالتوبيخ ولا تستفهم، فيقولون: ذهبت ففعلت وفعلت، ويقولون: أذهبت ففعلت وفعلت، وكل صواب"[33].

وقد فسر (هل) بمعنى (قد) في قوله تعالى: "هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً" حيث يقول: "معناه قد أتى على الإنسان حين من الدهر. وهل قد تكون سؤالاً، وتكون خبراً، فهذا من الخبر لأنك قد تقول: فهل وعظتك؟ فهل أعطيتك؟ تقرره بأنك قد أعطيته ووعظته، والجحد أن تقول: وهل يقدر واحد على مثل هذا؟ "[34].

ويعنى ابن خالويه بدراسة التّركيب القرآني بناء ومعنى واستعمالاً لغوياً واشتقاقاً وإعراباً، وقد تنبه إلى أثر التّنغيم في تحويل أسلوب النّداء إلى معنى التعجب نحو قوله تعالى: "يقول يا ليتني قدمت لحياتي"[35]، يقول: "يا: حرف نداء، وليتني: حرف تمني، فإن قيل لك: لم ينادي (ليت) وإنّما ينادي من يعقل؟ فالجواب في ذلك أن العرب تقول عند التعجب وعند الأمر الشّديد الذي تقع فيه: (يا حسرتا، ويا عجبا)، فيكون أبلغ من قولك: العجب من هذا (ما أعجب هذا)، قال الله تبارك وتعالى: (يا حسرة على العباد)[36].

ولقد استحوذت الظّواهر الصوتية في العربية على اهتمام ابن جنّي، فنجد عنده دراسات تأصيلية على الأصول والأصوات والتّراكيب والدلالة.

ولعلّ التّنغيم من الظّواهر التي شغل بها، فنجدها في غير باب من أبواب خصائصه، من ذلك بابه الموسوم (باب مطل الحركات وتقوية الصوت)، يقول فيه: "وقد حذفت الصفة ودلّت الحال عليها، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم: سِير عليه ليلاً. وهم يريدون ليلاً طويلاً، وكأن هذا إنّما حذفت فيه الصفة لما دلّ من الحال على وضعها. وذلك أنّك تحس في كلام القائل لذلك من التّطويح والتّطريح والتّفخيم والتّعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته. وذلك أن تكون في مدح إنسان والثّناء عليه فتقول: كان والله رجلاً. فتزيد في قوة اللفظ بـ (الله) هذه الكلمة، وتتمكّن من تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليها، أي رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً أو نحو ذلك. وكذلك تقول: سألناه فوجدناه إنساناً، وتُمكن الصوت بإنسان وتفخمه فيستغنى بذلك عن وصفه بقوله: إنساناً سمحاً أو جواداً أو نحو ذلك. وكذلك إن ذممته ووصفته بالضيق، قلت: سألناه وكان إنساناً، وتزوي وجهك وتقطبه، فيغني ذلك عن قولك: إنساناً لئيماً أو لحزاً أو مبخلاً أو نحو ذلك"[37].

وقد استطاع ابن جنّي أن يوظّف النّبر في الدلالة فهذا التّمطيط وهذه الإطالة تغنيك عن التّصريح بصفات المذكور في مدحه، وهي أبلغ في الدلالة من التّصريح بالأوصاف. وهذه الوظيفة الدلالية ليست غريبة علينا، " فكثيراً ما نلجأ إليها في لهجاتها وأحاديثنا خاصة حين نمدح أو نذم أو نتحاشى ذكر ألفاظ أو أوصاف بعينها"[38].

وفي باب (في نقض الأوضاع إذا ضامها طارئ عليها) يفصل القول في الحديث عن خروج أسلوب الاستفهام إلى التّعجب ثم الخبر، وتحول الخبر بعد دخول همزة الاستفهام

التّقريري إلى خبر منفي، ومنه لفظ الاستفهام إذا تضمن معنى التعجب، حيث يتحول إلى خبر نحو قولنا: مررت برجل أي رجل! قال: "فأنت الآن مخبر بتناهي الرجل في الفضل، ولست مستفهماً، وكذلك مررت برجل أي ما رجل! لأن (ما) زائدة، وإنما كان كذلك لأن أصل الاستفهام الخبر، والتعجب ضرب من الخبر، فكأن التعجب لما طرأ على الاستفهام إنّما أعاده إلى أصله من الخبرية"[39].

ومن ذلك - أي من تحول الأساليب - لفظ الواجب إذا لحقته همزة التّقرير عاد نفياً، وإذا لحقت لفظ النّفي عاد إيجاباً، وذلك قول الله تعالى: (أأنت قلت للناس) أي ما قلت لهم. وقوله تعالى: (آلله أذن لكم)، أي لم يأذن لكم، ومن دخولها على النّفي كقوله عز وجل: (ألست بربكم) أي أنا كذلك"[40].

النّبر (stress)

والنّبر "وضوح نسبي لصوت أو مقطع ما يغلب بقية أصوات أو مقاطع الكلمة، وهو نشاط ذاتي لابن الكفاية ينتج عنه نوع من البروز لأحد الأصوات أو المقاطع قياساً لما يحيط به"[41]، وهذا يعني أن بروز صوت ما يعتمد على شدة قوة النّفس، وبالتّالي فإن كمية الشدة في المقطع المنبور تكون أكثر منها في المقطع غير المنبور[42].

وهو يكون عادة مصحوباً بإشارة اليد أو الرأس أو بأجزاء أخرى من الجسم وهو يقتضي دفعة قوية من القفص الصدري، وبالنتيجة دفعة قوية من الزفير، مما يعطي الانطباع الحسي بالعلو[43].

أنواع النّبر ووظائفه

ولما كان المورفيم أصغر وحدة لغوية تحمل المعنى، وحيث إن المورفيم يتشخّص في أصغر صورة مقطعاً أحادياً، كانت الوحدة الصغرى للنّبر هي المورفيم[44]. وتختلف اللّغات في الوظيفة التي يؤديها النّبر في نظامها اللّغوي، فهناك من اللّغات ما يؤدي النّبر فيها وظيفة فنولوجية صرفية تفرق بين أقسام الكلام، وهي التي أطلق عليها فصيلة اللّغات النّبرية (Stress Languages)، ومن أبرز هذه اللّغات: اللّغة الإنجليزية والألمانية والروسية، والإسبانية، والدنماركية.

ففي الإنجليزية مثلاً يفرق بين الفعل (import) يستورد، والاسم (import) استيراد، بموقع النّبر، ففي حالة الفعل يقع النّبر على المقطع الثّاني، وفي حالة الاسم نضعه على المقطع الأول، ومثل ذلك كلمة present، فإذا نبرنا المقطع الأول كانت اسماً بمعنى هدية، وإذا نبرنا المقطع الثّاني تحولت الكلمة إلى فعل بمعنى يهدي.

وإلى جانب هذا النّوع من النّبر ثمة نوع آخر يوقع البون بين العبارات والأسماء المركّبة، ومثال ذلك: (to walk out) (a walk out) حيث يحتل النّبر المقطع الأول في الاسم المركب، في حين يقع النّبر على عنصري العبارة كليهما بالنّسبة للعبارة الفعلية.

وهناك من اللّغات ما يلعب النّبر فيها دوراً تركيبياً، فينقل التّركيب الاسمي من الفاعلية إلى المفعولية كما هو الحال في اللغة الإسبانية، ولعلّ هذه الوظيفة الأخيرة للنّبر قليلة الدوران في اللّغات الحية[45].

ومن اللّغات ما يفرق النّبر فيها بين المعاني المعجمية للكلام كالفونيم ومن ذلك كلمة (August) التي تعني جليل في حالة نبر المقطع الثّاني، وتعني شهر آب في حالة نبر المقطع الأول.

وإذا كان النّبر قد أدى ما أدى من بون صرفي وتركيبي ومعجمي في اللّغات النّبرية على التّعيين، فإن هناك من اللّغات غير النّبرية (Non stress languages) ما يلعب النّبر فيها دوراً لا يقل أهمية عن الدور الأول، وهو المسمى النّبر السياقي أو الانفعالي (Emotional stress) وهذا النّوع من النّبر هو نبر كوني، تضطلع به اللّغات الإنسانية على التّعيين، وهو يتشخّص في هيئة نبر إضافي يوقعه ابن الكفاية على مقطع غير ذاك الذي نبر عادة، ويرى تمام حسان أن هذا النّبر إما أن يكون تأكيداً وإما أن يكون تقريرا[46].

فلو امتحنّا جملة من نحو: تعال هنا، لوجدنا أن هذه الجملة تحتمل معنيين اثنين بحسب موقع النّبر، فإذا كان المتكلّم في حالة الأمر فإن النّبر يقع على الصائت الطّويل في (تعال) مع زيادة إطالته، وإذا قصد معنى الاستعطاف والتلطّف، أوقع النّبر على الصائت الطّويل دون زيادة في طوله.

ويتّصل بهذا النّوع من النّبر نبر الجملة (sentence stress) وفيه يتقصد المتكلّم نبر كلمة معينة في الجملة رغبة منه في تأكيدها أو التلميح بدلالة معينة، مثال ذلك قولنا: هل سافر أخوك أمس؟ فإذا نبر المتكلم لفظ (سافر) فهذا يعني أنّه ظن أن حدثاً آخر غير السفر هو الذي تم، وإذا نبر لفظ (أخوك) فهذا يعني أنّه شك في فاعل السفر فقد يكون الأخ أو الأب أو العم، وإذا نبر لفظ أمس فقد يفهم أنّه يشك في تاريخ السفر[47].

مظاهر النّبر عند الأوائل

عرف الأوائل النّبر بمعنى الهمز، فصاحب (العين) يذهب

إلى أن النّبر (هو الهمز) وكل شيء رفع شيئاً فقد نبره[48]، وعند الزمخشري: "وانتبر الجرح إذا تورم وارتفع مكانه، ونبرت الشّيء: رفعته"[49]، وينقل ابن منظور أن "النّبر مصدر نبر ينبر نبراً، همزه، والمنبور المهموز، ويقال: نبر الرجل إذا تكلّم"[50]، ويذكر أيضاً "وانتبر الخطيب، أي ارتفع صوته، والمنبر محل مرتفع سمي كذلك لارتفاعه، ورفع الصوت عليه كقول الشاعر:

إني لأسمع نَبرةً مِن قَولِها   فَأكاد أن يغْشَى علي سروراً[51]

ويذهب بعض الباحثين المحدثين إلى القول "لما كان تصور القدماء دائماً للنّبر على أنّه الضغط على الحرف وجدنا أنّهم يتتبعون وجوده على الحروف ويرصدون آثاره في هيئاتها، فإذا الألف مهموزة والواو والياء كذلك، وإذا الهمزة تصبح لقباً من ألقاب الحروف الهجائية وقد كانت مجرد معنى لغوي مرادف للضغط أو النّبر أي مجرد تعبير عن حالة من حالات نطق الحروف "[52].

ومما يتّصل بهذه المباحثة (مطْلُ الحركات)، وهو مصطلح قال به ابن جنّي في (الخصائص) تحت عنوان: (باب في مطل الحركات)، وهذا النّوع في ظنّي يقارب في كثير من ملامحه مصطلح النّبر عند المحدثين، فإذا كان المحدثون قد ذهبوا إلى أن النّبر طاقة زائدة في النّطق للمقطع المنبور، فإن مصطلح مطل الحركات عند صاحب الخصائص يقارب هذا المعنى حيث يقول: "وإذا فعلت العرب ذلك أنشأت عن الحركة الحرف من جنسها فتنشئ بعد الفتحة الألف، وبعد الكسرة الياء، وبعد الضمة الواو، والألف منشأة عن إشباع الفتحة، ومن مطل الفتحة قول الهذلي:

بينَا تَعنقِهِ الكُماةَ وروغِهِ   يوماً أُتِيح له جريء سلْفَعُ

أي بين أوقات تعنقه، ثم أشبع الفتحة فأنشأ عنها ألفاً.

وحكى الفراء: أكلت لحماً شاة، أراد: لحم شاة، فمطل الفتحة فأنشأ عنها ألفاً. ومن إشباع الكسرة ومطلها ما جاء عنهم من صياريف ومطافيل وجلاعيد، قال أبو النّجم:

حتّى تَراءتْ في النعاجِ الخُذّل   منها المطَافيلُ وغيَر المطفِل

ومن مطل الضمة قول الشّاعر:

ممكُورةٌ جم العِظَامِ عُطبول   كأن فِي أنْيابِها القَرنْفُول" [53]

كما نجده يقول في المحتسب: "وعلى هذا قول سيبويه: إنهم يقولون (بِسِير عليهِ ليلٌ) يريدون (ليلٌ طَويلٌ)، وهذا إنّما يفهم عنهم بتطويل الياء"، ويقول في موضع آخر: "يحكى أن رجلاً ضرب ابناً له فقالت له أمه: "لا تضربه ليس هو ابنك، فرافعها إلى القاضي، فقال: هذا ابني عندي، وهذه أمه تذكر أنّه ليس مني، فقالت المرأة: ليس الأمر على ما ذكره، وإنّما أخذ يضرب ابنه، فقالت له: لا تضربه ليس هو ابنك، ومدت فتحة النون، فقال الرجل: والله ما كان فيه هذا التّطول الطّويل"[54].

وقد تنبه سيبويه إلى ذلك قبله حيث يقول تحت عنوان (هذا باب الإشباع في الجر والرفع وغير الإشباع والحركة كما هي): "فأما الذين يشبعون فيمططون وعلاقتها واو وياء، وهذا تحكمه لك المشافهة"، كما يقول تحت عنوان (هذا باب وجوه القوافي في الإنشاء): "أما إذا ترنموا فإنّهم يلحقون الألف والياء والواو وما ينون وما لا ينون؛ لأنّهم أرادوا مد الصوت، ذلك قولهم في قول امرئ القيس: قِفَا نَبكِ مِن ذِكْرى حبِيبٍ ومنْزِلي، وقالوا في الرفع للأعشى: هريرةَ ودعها وإن لام لائِمو" كما يقول في موضع آخر: "اعلم أن المندوب مدعو ولكنّه متفجع عليه، فإن شئت ألحقت في آخر الاسم الألف لأن النّدبة كأنّهم يترنّمون فيها"[55].

كما يقول ابن يعيش في شرح المفصل: "وأما (وا) فاختص به النّدبة؛ لأن النّدبة تفجع وحزن والمراد رفع الصوت ومده لإسماع جميع الحاضرين"[56].

وهكذا نجد أن مصطلح مطل الحركات عند الأوائل يقارب في كثير من ملامحه مصطلح النّبر في الصوتيات الحديثة.

الطّول (length)

إن تفريق الكلمات والمنطوقات بعضها عن بعض لا يتم عن طريق الفروق النوعية (quality) فقط، وإنّما قد يتم عن طريق الفروق الكمية (quantity) أو الطّول (length)، أو مدة (duration) الأصوات.

ويعرف طول الصوت بأنّه: طول الزمن الذي تحتفظ في أثنائه بالصوت مستمراً في كلمة أو عبارة معينة[57]. والطّول أو الكمية ما هو إلا نوع من تعديل النّطق، ويوصف الصوت بأنّه طويل إذا كان صوته المميز محتفظاً به لوقت طويل نسبياً[58].

أنواع الطّول في العربية

أولاً: في مستوى الصوامت: ويعد هذا النّوع من الطّول ألفونياً، إذ لا يترتب عليه بون معجمي[59]، كما لا يعد الصامت المدغم في مثله صامتاً طويلاً واحداً بل يتضمن

مثلين لصامتين مستقلين متتابعين، فالقول بطول الصامت المدغم يقتضي أمرين: أولهما: أن يكون نطق الصامت الطّويل مستمراً ممتداً لا انقطاع فيه، وثانيهما: أن يؤدي الصامت المدغم وظيفة صامت واحد لا صامتين اثنين من حيث التّركيب المقطعي، وقد دلّت التجارب العملية في مختبر الصوتيات وجود هبوط ملحوظ في أثناء نطق الصامت المدغم، وهذا يعني وجود حد مقطعي يقسم الصوت المدغم قسمين يشكل الأول منهما نهاية مقطع، والثّاني بداية لآخر تالٍ له[60]. وينظر إلى الصامت المدغم في جميع السلوكيات الصرفية على أنّه صامتان اثنان لا صامتاً واحداً. ولقد تنبه أهل الأداء القرآني إلى هذه الحقيقة الصوتية، فعدوا الصامت المدغم صامتين اثنين، وجعلوا سقوط أحدهما في القراءة إخلالاً بها، كما ذهب أهل العروض إلى أن الصامت المدغم صامتان اثنان، وجعلوا تخفيفه من باب ضرائر الشّعر.

وتطبيقاً على هذه المباحثة تؤيد الدراسة ما ذهب إليه جعفر عبابنة في نفيه صفة الطّول الفونيمي في الصوامت العربية[61].

ثانياً: في مستوى الصوائت: وهذا النّوع من الطّول ذو وظيفة فونيمية يغير المعنى، ومن الأمثلة على ذلك: فلْ وفول، وعصفر وعصفور وخمر وخمور. وإلى جانب هذه الوظيفة الفونولوجية يؤدي الطّول دوراً تصريفياً، إذ يحول الكلمة من سمت صرفي إلى سمت آخر، ومثال ذلك: علم عالم، وعهد عهود، كتب كاتب. وإذا كان التّحليل الفونولوجي يميز بين درجتين من الطّول في الفونيمات الصائتة، فإن هناك درجات أخرى تزيد على هذا التّقسيم، فقد يمتد الصائت الطّويل ليصبح طويلاً جداً، وقد يقصر الصائت القصير ليكون قصيراً جداً.

وتتباين اللّغات في درجات الطّول لفونيماتها تبعاً لتباين نظمها الفونولوجية، ففي العربية يمكّننا أن نميز بين خمس درجات من الطّول، فهناك الحركات المختلسة (وهي الحركات القصيرة جداً). والاختلاس مذهب لبعض العرب والقراء خاصة أبي عمرو بن العلاء على ما ذكر سيبويه[62].

وهناك الصوائت القصيرة كما في (كَتَب)، والصوائت الطّويلة كما في (كاتب) ثم الصوائت الأطول، كما في صحراء، هدوء، بريء، وهناك المديدة أو الأكثر طولاً، وهي الصوائت الطّويلة الواقعة قبل الصامت المضعف، نحو: ضالّ وسارّ.

ثمة إذاً خمس درجات من الطّول متميزة في العربية، غير أن التّحليل الفونولوجي يشير عادة إلى نوعين من الطّول هما: الطّويل والقصير، فليس هناك قيمة خلافية خارج هاتين الدرجتين.

وتعد اللّغات التشيكية والصربية والكرواتية والهنغارية من أشهر اللّغات التي يحمل نظامها الفونولوجي فونيمات طويلة وقصيرة ذات قيم خلافية[63]، في حين نجد من اللّغات ما لا تحمل نظمها الفونولوجية أية قيمة خلافية لهذه الفونيمات، حيث ينظر إليها على أنّها تنوعات أسلوبية أو تغيرات عشوائية لا تمت بأي صلة للنّظام الفونولوجي، ومن هذه اللّغات: اللّغة الإسبانية والروسية[64] والفرنسية.

ومن اللّغات ما يقع وسطاً بين هذين النّوعين، ويكون التّقابل بينهما فونيمياً وقد يكون ألفونياً. ففي العربية مثلاً نجد السمة الغالبة لهذا التقابل أنّه غير وظيفي أي غير فونيمي نحو: أنق وأنيق، ولسان زلق ولسان زليق، وخاتم وخاتام، وعنطب وعنطاب، ومفاتح ومفاتيح، وعناكب وعناكيب، واحمر واحمار.

فطول الحركة لم يؤد إلى تغير في المعنى، غير أنّنا نجد في مقابل ذلك علم وعالم، وعصفر وعصفور، وفِرق وفريق، وخمر خمور، وفُل فول، فاستبدال الصائت الطويل بالصائت القصير في هذه الأمثلة قد أدى إلى تغير المعنى، فهو إذاً في تقابل وظيفي.

وأما الصائت الطّويل فقد يمد في طوله استجابة إلى بعض أحكام الأداء القرآني التي تقتضي إطالته وذلك إذا كان متلواً بهمزة أو ساكن مدغم كما في قوله تعالى: "إنّي أخاف الله " و"الضآلين" وإلى جانب هذه العوامل اللّغوية تبرز عوامل غير لغوية، كتأكيد النّفي في مثل قولنا: (لا إله إلا الله) بمد ألف لا. وكذلك التذكّر والنّداء والنّدبة، والاستغاثة[65].

المفصل (juncture)

ونجد المفصل حلقة صوتية تكمل حلقات عقْد الفونولوجيا فوق التركيبية، وهو يعرف على أنّه السكتة الخفيفة بين كلمات حدث كلامي، أو بين مقاطع كلمة معينة، يمكن الوقوف عليها جزئياً أو كلياً لأداء المعنى[66].

وهو بذلك يؤدي وظيفة فونيمية في اللّغة، كالنّبر والتّنغيم والطّول، فتتعدد به الدلالات وينزاح به اللّبس والغموض، "والحاصل أن المرء قد يرد على أحداث كلامية لا يقف على المتعين منها إلا بإقامة المفصل الصوتي، إذ إنّه وسيلة من وسائل تعيين حدود الكلمات (word boundaries) وانفساخ نسيج التركيب بين جملتين بغية الفصل بين معانيها"[67].

فقد يحدث أن تتشخص كلمتان في هيئة كلمة واحدة فيتوهم أنّها كلمة واحدة، ومثال ذلك:

(إنّما: إن ما)، (أوصال) (في حالة الوقف، حرف عطف يعقبه اسم فاعل)، أوصى لي (فعل ماض يعقبه ضمير

مجرور)، (أقوالُها في حالة النّصب)، وأقوى لها)، إلى هنا رجعنا: إلهنا رجعنا)، (أباريقُه، (أبى، ريقُه). كما في البيتين:

أفْدِي الذي نادمني لَيلةً   راحاً وقد صبتْ أباريقَه

سأَلْتُ ورداً فأبى خَده   ورمتُ راحاً فأبى ريقُه[68]

وعادة ما يلجأ ابن الكفاية إلى تقصد مفصل عارض في نطاق الكلام حتى ينزاح الغموض وتتباين الدلالات.

إن غياب الحركة الإعرابية عن أواخر هذه الكلم هو الذي أفضى بها إلى هذا اللّبس، ذلك أن رسم الحركة الإعرابية على آخر كلمة القمر يرفع هذا الغموض، ويظهر البون الدلالي المتشخّص من تغاير الموقع الإعرابي للقمر، من الفاعلية في رسم الضمة إلى الإضافة في رسم الكسرة. وكذا في بقية الأمثلة .

ولنتفحص الأمثلة التالية:

(جالَ سنَا القمر: جالَسنا القمر)، (سيأتي كبكر: سيأتيك بكر)، (لو لام راعي الخير: لولا مراعي الخير)، (حلا لي: حلالي).

وقد تنبه ابن جنّي إلى هذا النّوع من اللّبس، ففي باب توجه اللّفظ الواحد إلى معنيين اثنين قال: "وهذا باب في نهاية الانتشار، وليس عليه عقد هذا الباب، وإنّما الغرض الباب الآخر الأضيق الذي ترى لفظه على صورة، ويحتمل أن يكون على غيرها كقوله:

نَطعنُهم سلكى ومخلوجةً   كرك لأمين على نابِل

فهذا ينشد على أنّه ما تراه: كرك لامين (أي ردك لامين) وهما سهمان، على نابل....، ويروى أيضاً على أنه: كرر كلامين على صاحب النّبل كما تقول له: ارم ارم، تريد السرعة والعجلة "[69].

ومن ذلك المثل السائر: زاحِم بِعودٍ أو دع. والمعنى: زاحم بقوة أو فاترك ذلك، "وقد توهمه بعضهم: بعود أودع، فذهب إلى أن أودع صفة لعود، كقوله: بعود أو قص أو أوطف، أو نحو ذلك مما جاء على أفعل وفاؤه واو"[70].

"وما جلس أبكارٍ أطاع لِسرحِها   جنى ثمرٍ بالوادِيين وشُوع

وموضع الدرس هنا كلمة (وشوع) ففيها قولان أولهما: (وشوع) بمعنى كثير، وبهذا تكون صيغة لجني ثمر الواديين. وثانيهما: أن الواو ليست جزءاً من بنية الكلمة في ذاتها، وإنّما هي كلمة قائمة برأسها تفيد العطف والشوع ضرب من النّبت"[71].

ومما يتّصل بهذه المباحثة حديث عن الوقف والابتداء في الذّكر الحكيم ذلك أنّه مطاب يتحقّق به الوقوف على الدلالات ويترتّب عليه فوائد كثيرة واستنباطات غزيرة، وبه تتبين معاني الآيات ويؤمن الاحتراز عن الوقوع في المشكلات[72].

مظاهر المفصل عند اللسانيين الأوائل

وإذا كان تذبذب نغمة الصوت يهيئ للكلام معاني شتّى تترشح من مقاصد يبين عنها ابن الكفاية في الموقف الكلامي، فإن انفساخ قطوع الكلام، واتّصال نسيج الجمل يؤذن بتعدد خطير لا يسلم منه حتى الذكر الحكيم .

ومن هذا فواصل الكلام في آيات الرحمن، وشارحها : " حروف متشابكة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني، وفيها بلاغة والأسجاع عيب؛ لأن السجع يتبعه المعنى والتواصل تابعة للمعاني"[73]. أو هي "الكلام المنفصل عما بعده والكلام المنفصل قد يكون رأس آية، وغير رأس آية، وكذلك الفواصل، وكل رأس آية فاصلة، وليس كل فاصلة رأس آية "[74]. ومما يتّصل بهذا المطاب على التّعيين مطاب القول في الوقف والابتداء، والوقف: "ظاهرة صوتية أدائية تصاحب الخطاب المنطوق على وجه الخصوص"[75] مضماره لغة التنزيل يترتّب عليه تعدد المعاني وتغاير المرامي"[76]، ذلك أنه مطاب له خطره في إقامة المعاني "ويترتب عليه فوائد كثيرة واستنباطات غزيرة، وبه تتبين معاني الآيات ويؤمن الاحتراز عن الوقوع في المشكلات"[77]، وبه تستعد القوة المفكرة للغوص في بحر معانيه على درر فوائده، وقد قال الهذلي مما رأيته في كامله: الوقف حلية التلاوة، وزينة القارئ، وبلاغ القالي وفهم للمستمع، وفخر للعالم، وبه يعرف الفرق بين المعنيين المختلفين، والنّقيضين المتباينين، والحكمين المتغايرين..."[78].

وقد فصل العلماء القول في عدته وفوائده[79]، وأرجعه أكثرهم إلى أربعة أقسام وهي: "تام مختار وكاف جائز، وحسن مفهوم، وقبيح متروك "[80]، والحاصل أن تغاير الفصل والوصل في نسيج الخطاب والكلام آية دالة على فضل هذا المطاب في تحديد المتعين في وقائع الكلام.

وقد تنبه الأوائل لهذا المطاب الدور الذي يؤديه الوقف أو السكتة الكلامية في الكلام، فأدركوا أن اختلاف موقع المفصل يؤدي إلى اختلاف المعنى، ومثال ذلك: البيت الذي ترويه كتب البلاغة في باب الجناس: [81]

إذا مِلك لم يكُن ذا هِبةْ   فدعه فدولتُه ذاهِبةْ

إذ ينبغي الوقوف على (ذا) للفصل بينها وبين كلمة (هبة). ومن هذا القبيل القراءة الخاطئة لقوله تعالى: "عيناً فِيها تُسمى

سلْسبِيلاً"[82]، بالوقف على اللام في (سل سبيلاً).

وفي قوله تعالى "ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هدى لِلْمتقِينَ"[83]، يقول ابن كثير في تفسير الآية: "من القراء من يقف على قوله تعالى: " ذلك الكتاب لا ريب فيه، هدى للمتقين"، ويكون لفظ هدى صفة للقرآن وذلك أبلغ، وهناك من قرأ بالوقف على قوله تعالى: (ذلك الكتاب لا ريب، فيه هدى للمتقين) وهذه قراءة نافع وعاصم، ويكون هدى مرفوعاً على النّعت أو منصوباً على الحال"[84].

ويقول الفخر الرازي في تفسير هذه الآية: "الوقف على "لا ريب فِيهِ، هدى للمتقين" هو المشهور، ووقف نافع وعاصم على قوله تعالى: (لا ريب، فيه هدى للمتّقين) ومن ذلك قول العرب: لا بأس، ولا ضير، ولا بد للواقف هنا أن ينوي خبراً "[85]، ويستطرد قائلاً: "اعلم أن القراءة الأولى أولى؛ لأن على القراءة الأولى يكون الكتاب نفسه هدى، وفي القراءة الثّانية لا يكون في الكتاب نفسه هدى بل يكون فيه هدى، والأولى أولى لما تكرر في القرآن من أن القرآن نور وهدى"[86].

ويذكر أبو حيان وجهاً ثالثاً للوقف (ذلك الكتاب، لا ريب، فيه هدى للمتقين) "ويكون ذلك الكتاب جملة تخبر فيها بأن المشار إليه هو الكتاب الكامل كما تقول: زيد الرجل أي الكامل في الأوصاف، ولا ريب: جملة ثانية مستأنفة نعت في موضع نصب أي هذا الكتاب مبرأً من الريب، وفيه هدى للمتّقين جملة ثالثة تخبر بأن فيه الهدى للمتقين، والجملة الأولى حقيقة والثانية والثالثة في المجاز؛ لأن الكتاب جعل ظرفاً والهدى جعل مظروفاً"[87].

ومن نحو ذلك قوله تعالى: "فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به"[88]، يقول الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة: " "وما يعلم تأويله إلا الله" اختلف النّاس في هذا الموضع فمنهم من قال: تم الكلام هنا ثم الواو في قوله "والراْسخون فِي العِلْمِ) واو الابتداء، وعلى هذا القول: لا يعلم المتشابه إلا الله، والقول الثّاني أن الكلام إنما يتم عند قوله تعالى "والراسِخُون فِي العِلْمِ"، وعلى هذا القول يكون العلم بالمتشابه حاصلاً عند الله تعالى وعند الراسخين في العلم"[89].

يقول أبو حيان في تفسير هذه الآية: " "وما يعلم تأويله إلا الله" تم الكلام عند قوله إلا الله، ومعناه أن الله استأثر بعلم تأويل المتشابهة، ويكون قوله: الراسخون مبتدأ ويقولون خبر عنه، وقيل الراسخون معطوف على الله، وهم يعلمون تأويله، و(يقولون) حال منهم أي قائلين"[90].

وإلى جانب مفسري الذّكر الحكيم، تفطّن علماء التجويد إلى أهمية الوقف والابتداء في الآداء القرآني، يقول ابن الجزري: " الكلام على معرفة ما يوقف عليه ويبتدأ به قد ألّف الأئمة فيه قديماً وحديثاً ومختصراً أو مطولاً أتيت على ما وقفت عليه من ذلك واستقصيته في كتاب (الاهتداء إلى معرفة الوقف والابتداء). وها أنا أشير إلى زبد ما في الكتاب المذكور فأقول: لما يمكن للقارئ أن يقرأ السورة أو القصة في نفس الكلمة وجب حينئذ اختيار وقت للتنفّس والاستراحة، وتعين ارتضاء ابتداء بعد التنفّس والاستراحة وتحتم أن لا يكون ذلك مما يخل بالمعنى ولا يخلّ بالفهم، إذ بذلك يظهر الإعجاز، ويحصل القصد، ولذلك حظّى الأئمة على تعلّمه ومعرفته، وقد كان أئمتنا يوقفوننا عند كل حرف ويشيرون إلينا فيه بالأصابع، سنّة أخذوها كذلك عن شيوخهم الأولين. ومن ذلك إذا قرأت قوله تعالى: "كُلّ من عليها فَانٍ" فلا تسكت حتى تقرأ: "ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام"[91].

ويقول عنه القسطلاني: "ولا مرية أن بمعرفتهما تظهر معاني التّنزيل، وتعرف مقاصده، وتستعد القوة المفكّرة للغوص في بحر معانيه، على درر فوائده، وقد قال الهذلي: مما رأيته في كامله- الوقف حلية التّلاوة، وزينة القارئ، وبلاغ التّالي، وفهم للمستمع، وفخر للعالم، وبه يعرف الفرق بين المعنَيين المختلفين، والنقيضين المتباينين، والحكمين المتغايرين"[92].

وإذا كان المعنى هو الضابط الذي تشتغل فيه هاتان الظاهرتان فإن وظائف التراكيب وما تحبسه من معاني العناصر ودلالات الجمل، ميدان آخر يردف مضمار المعنى.

الهوامش

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 79.

(2) ماريو باي، أسس علم اللغة، ص92-93.

(3) David Crystal- Dictionary of Linguistics and Phonetics, P(283).

(4) خليل، دور السياق في الدرس اللغوي، ص76.

(5) مالبرج، الصوتيات، ص82.

(6) Robins R.h- General Linguistics. P(57)

(7) ودورث، مدارس علم النفس المعاصرة، ص104.

(8) Bloomfield- Language. P(24).

(9) الشايب، محاضرات في اللسانيات، ص252.

(10) عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص19، قدور، مبادئ اللسانيات ص119، كريم حسام الدين، الدلالة الصوتية، ص194.
(11) العياشي، نظرية إيقاع الشعر العربي، ص48.
(12) مالبرج، علم الأصوات (م ت)، ص83.
(13) H.Glesson, An Introduction to Descriptive Linguistics, p(176)
(14) المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، ص225، يقول سيد قطب: (إن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، ويجب أن نتوسع في معنى التصوير، حتى ندرك آفاق التصوير الفني في القرآن، فهو تصوير باللون، وتصوير بالحركة، وتصوير بالإيقاع، وكثيراً ما يشارك الوصف والحوار، وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السياق في إبراز صورة من الصور تتملاها العين والأذن، والحسن والخيال والفكر والوجدان) انظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص43. وينظر: صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص334 وما بعدها.يذهب تمام حسان إلى أن التنغيم ذو وظيفة دلالية يمكن من خلالها تحديد الإثبات والنفي في الجمل التي لم يستخدم فيها علامات الترقيم، ويتم معرفة نمط التنغيم - عنده- خلال مسألتين: 1.طريقة الصوت ارتفاعاً وخفضاً.2.المقطع المنبور، تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص164.ويذهب خليل عمايرة إلى أن مراعاة ملحظ التنغيم في التحليل النحوي يؤدي بنا إلى تصنيف جديد لأبواب النحو، يغاير ما ألفناه عند النحاة الأوائل.انظر: خليل عمايرة، في نحو اللغة وتراكيبها منهج وتطبيق، ص161-162.
(15) نور الدين، علم وظائف الأصوات اللغوية، ص175.
(16) نور الدين، الوظائف والأصوات اللغوية، ص155.
(17) الآية 5 من سورة الفجر.
(18) الآية 365 من سورة البقرة.
(19) الآية 53 من سورة الأعراف.
(20) الآية 1 من سورة المدثر.
(21) الآية 25 من سورة الحاقة.
(22) الآية 108 من سورة المؤمنون.
(23) الآية 7 من سورة التحريم.
(24) سيبويه، الكتاب، ج1، ص339، والبيت في ديوان جرير، ص650.
(25) المصدر نفسه، ج4، ص497.
(26) حسن، المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، ص263.
(27) الغزاوي، التنغيم اللغوي في القرآن الكريم، (ر.م)، ص18.
(28) الآية 3 من سورة السجدة.
(29) الفراء، معاني القرآن، ج3، ص383.
(30) الآية 19 من سورة الزخرف.
(31) الفراء، معاني القرآن، ج3، ص30.
(32) الآية 20 من سورة الأحقاف.
(33) الفراء، معاني القرآن، ج3، ص54.
(34) المصدر نفسه، ج3، ص213، والآية 1 من سورة الإنسان.
(35) الآية 24 من سورة الفجر.
(36) ابن خالويه، إعراب ثلاثين سورة، ص48، والآية 30 من سورة يس
(37) ابن جني، الخصائص، ج2، ص370-371.
(38) مجاهد، الدلالة اللغوية عند العرب، ص177.
(39) ابن جني، الخصائص، ج3، ص269.
(40) المصدر نفسه، والآيات من سورة المائدة آية 116، سورة يونس آية 59، سورة الأعراف آية 72، سورة طه آية 96.
(41) عمر، دراسة الصوت اللغوي ص188، تمام حسان، مناهج البحث في اللغة ص160، محمود السعران، علم اللغة، ص206
(42) يقسم بعض اللغويين النبر بناء على درجات القوة إلى أربع درجات نبر أولي ونبر ثانوي، ونبر متوسط، وضعيف، انظر: سعد مصلوح، دراسة السمع والكلام، ص272-76. وماريو باي، أسس علم اللغة، ص93.
(43) الشايب، محاضرات في اللسانيات، ص247.
(44) المصدر نفسه، ص247.
(45) الشايب، محاضرات في اللسانيات، ص247.
(46) حسان، مناهج البحث، ص197.
(47) أنيس، الأصوات اللغوية، ص123.
(48) الخليل، العين، مادة (نبر).
(49) الزمخشري، أساس البلاغة، مادة (نبر).
(50) ابن منظور، لسان العرب، مادة (نبر).
(51) المصدر نفسه.
(52) مالبرج، علم الأصوات، ص168.
(53) ابن جني، الخصائص، ج3، ص121- 123.
(54) ابن جني، المحتسب،ج2، ص209 – 210.
(55) المصدر نفسه.
(56) سيبويه، الكتاب، ج4، ص202-204.
(57) ابن يعيش، شرح المفصل، ج2، ص18.
(58) الشايب، محاضرات في اللسانيات، ص258.
(59) المصدر نفسه.
(60) أعني بهذا النوع الطول في العربية حسب.
(61) عبابنة، طول الصوت اللغوي، ص79.
(62) المصدر نفسه، ص 79.
(63) سيبويه، الكتاب، ج4، ص241.
(64) الشايب، محاضرات في اللسانيات، ص258.

(65) المصدر نفسه، ص258.
(66) عبابنة، طول الصوت اللغوي، المجلة الثقافية، ع14، ص79.
(67) الشايب، محاضرات في اللسانيات، ص261، حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص270- 272، إبراهيم أنيس، أسرار اللغة، ص220- 236. الخولي، الأصوات اللغوية، ص167.
(68) عرار، ظاهرة اللبس في العربية، ص16.
(69) السيوطي، جنى الجناس، ص127.
(70) ابن جني، الخصائص، ج3، ص168- 169.
(71) المصدر نفسه، ج3، ص171.
(72) المصدر نفسه، ج3، ص172.
(73) الزركشي، البرهان، ج1، ص342.
(74) الباقّلاني، إعجاز القرآن، ص270- 271.
(75) السيوطي، الإتقان، ص94.
(76) حلبص، أثر الوقف في الدلالة التركيبية، ص15.
(77) الأشموني، منار الهدى في بيان الوقف والابتداء، ص8.
(78) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص342.
(79) القسطلاني، لطائف الإشارات لفنون القراءات، ج1، ص249.
(80) بعضهم جعلها ثمانية وبعضهم أربعة أو ثلاثة أو اثنين .الأنصاري، المقصد لتخليص ما في المرشد، ص5.
(81) الداني، المكتفي في الوقف والابتداء، ص56 .ابن الجزري، التمهيد في التجويد، ص177.
(82) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ج1، ص384.
(83) سورة الإنسان، الآية 18.
(84) سورة البقرة الآية 2.
(85) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج1، ص61.
(86) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج2، ص21- 22.
(87) المصدر نفسه.
(88) أبو حيان، البحر المحيط، ج1، ص37.
(89) الآية 7 من سورة آل عمران.
(90) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج7، ص190.
(91) أبو حيان، البحر المحيط، ج2، ص384.
(92) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج1، ص224-225، والآية 26 من سورة الرحمن.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني (392هـ) الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1952م.

أبو حيان، أبو عبد الله، محمد بن يوسف، البحر المحيط، الرياض، 1970م.

ابن خالويه، أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه (ت 370هـ)، إعراب ثلاثين سورة في القرآن الكريم، مكتبة الزهراء، القاهرة، د.ت.

ابن يعيش، شرح المفصل، موفق الدين (649هـ)، عالم الكتب، بيروت، د.ت.

ابن الجزري، أبو الخير، محمد بن محمد الدمشقي، النشر في القراءات العشر، صححه وراجعه: علي محمد الضباع، دار الفكر، القاهرة.

ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء (774هـ) تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت، 1983م.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم (ت 711هـ)، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، 1986م.

أبو موسى، محمد، 1987م، دلالات التراكيب، دراسة بلاغية، ط2، دار التضامن، القاهرة.

أحمد، نوزاد حسن، 1996م، المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، جامعة قاريونس، بنغازي.

الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، ت 370ه، تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون وآخرون، القاهرة، 1964-1967م.

الأشموني، أحمد بن محمد بن عبد الكريم (900هـ)، والأنصاري، أبو يحيى زكريا بن محمد (ت926 هـ): منار الهدى في بيان الوقف والابتدا ومعه المقصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء، منشورات محمد علي بيضون، 2002، دار الكتب العلمية، بيروت.

أنيس، إبراهيم، 1975م، الأصوات اللغوية، ط5، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، (ت403هـ) .إعجاز القرآن، (تحقيق السيد أحمد صقر)، دار المعارف، القاهرة، 1954م.

برتيل، مالبرج، علم الأصوات، ترجمة: عبد الصبور شاهين، 1984م، مكتبة الشباب القاهرة.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، 1969م.

الجليل، عبد القادر مرعي، 1993م، (المصطلح الصوتي) عند علماء العربية في ضوء علم اللغة الحديث، ط1، منشورات جامعة مؤتة.

حسام الدين، كريم، الدلالة الصوتية، دراسة لغوية لدلالة الصوت ودوره في التواصل، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، 1992م.

حسين، وليد، دور المنهج الاستبدالي في وصف العربية وتقعيدها، إشراف: نهاد الموسى، الجامعة الأردنية، عمان، 2002.

الخولي، محمد، 1987م، الأصوات اللغوية، مكتبة الخانجي.

خليل، إبراهيم، 1990م، السياق وأثره في الدرس اللغوي، إشراف محمود السمرة.

الداني، أبو عمر عثمان بن سعيد، (ت444هـ)، المكتفي في الوقف والابتداء، (تحقيق جديد زيدان مخاف)، 1983م مطبعة وزارة الأوقاف، العراق.

دمشقية، عفيف، الانفعالية والإبلاغية في بعض أقاصيص ميخائيل نعيمة، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، العدد 908، بيروت.

الرازي، أبو عبد الله، فخر الدين محمد بن عمر، التفسير الكبير، ط3، دار الفكر، بيروت، 1985م.

الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (794هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، 1987م.

الزمخشري، جار الله (538هـ) أساس البلاغة، ط1، مكتبة لبنان، 1996م.

السعران، محمود، علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.

السيوطي، جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، (ت911هـ) الإتقان في علوم القرآن، ط1، (تحقيق مصطفى ديب البغا)، دار ابن كثير، 1987م.

سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت 180هـ)، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، 1966م.

سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار المعارف، مصر، د.ت.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (911هـ) جنى الجناس، تحقيق: محمد الخفاجي، ط1، الدار الفنية، القاهرة، 1986م.

الشايب، فوزي، 1999م، محاضرات في اللسانيات، ط1، منشورات وزارة الثقافة، عمان.

الصالح، صبحي، 1988م، مباحث في علوم القرآن، ط17، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

عبد التواب، رمضان، فصول في فقه اللغة، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة.

عبابنة، جعفر، طول الصوت اللغوي، حقيقته ووظيفته، المجلة الثقافية، العدد 14.

عمايرة، خليل، 1984، في نحو اللغة وتراكيبها، منهج وتطبيق، ط1، عالم المعرفة، جدة.

عمر، أحمد مختار، 1991م، دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة.

العياش، محمد، 1976م، نظرية إيقاع الشعر العربي، المطبعة العصرية، تونس.

عرار، مهدي، ظاهرة اللبس في العربية، إشراف: وليد سيف، 1999م، الجامعة الأردنية، عمان.

الغزاوي، سمير، التنغيم اللغوي في القرآن الكريم، إشراف: سعيد الزبيدي، جامعة آل البيت، عمان، 1999م.

الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (207هـ) معاني القرآن ج3، تحقيق: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، 1972م، مراجعة: علي النجدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الفراهيدي، الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، تحقيق: المخزومي والسامرائي، دار الشؤون الثقافية، بغداد.

فردينان دي سوسير، علم اللغة العام، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، 1984م، ط1.

القزويني، الخطيب محمد بن عبد الرحمن (739هـ) الإيضاح في علوم البلاغة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م.

القسطلاني، أبو العباس، شهاب الدين أحمد بن محمد، لطائف الإشارات لفنون القراءات، تحقيق: الشيخ عامر السيد، د.عبد الصبور شاهين، 1972م، ط المجلس الأعلى.

قدور، أحمد محمد، 1996، مبادئ اللسانيات، ط1، دار الفكر، دمشق.

مصلوح، سعد، 1980م، دراسة السمع والكلام، عالم الكتب، القاهرة.

مجاهد، عبد الكريم، 1985م، الدلالة اللغوية عند العرب، دار الضياء، عمان.

ماريو باي، أسس علم اللغة، ترجمة: أحمد مختار عمر، 1973م، جامعة طرابلس.

-------، لغات البشر، ترجمة: صلاح العربي، 1970، الجامعة الأمريكية، القاهرة.

المخزومي، مهدي، 1964م، في النحو العربي نقد وتوجيه، ط1، المكتبة العصرية، بيروت.

معجم ألفاظ القرآن، مجمع اللغة العربية القاهرة.

نور الدين، عصام، علم وظائف الأصوات -اللغوية- الفونولوجيا، ط1، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1992م.

من أسرار اللغة، ط3، مكتبة الأنجلو، القاهرة، 1966م.

حسان، تمام، 1974م، مناهج البحث في اللغة، ط2، دار الثقافة، الدار البيضاء.

ودورث، روبرت، مدارس علم النفس المعاصرة، ترجمة: كمال دسوقي.

Bloomfield- Leonard- language. 1973. London: George Allen and University Ltd.

David Crystal- Dictinary of Linguistics and Phonetics. 1991. Cambridge.Black well 3.

Glesson, H. 1961.An Introduction to Descriptive Linguistics. Holt, Rinehart, and Winston.

Robins R.H- General Linguistics. 1989. London, Longman Group, Ltd.Fourth Edition.

Supersegmental Phoneme in Arabic

*Waleed Hussein**

ABSTRACT

This research attempts to study the Supersegmental Phoneme in Arabic such as: intonation, stress, length, and Juncture.

This research has been based on two dimensions:

- The first of which represents the theoritical aspects of Supersegmental Phoneme, indicating it's meaning in modern linguistics. It also deals with two terms: Prosody and Supersegmental Phoneme.

It indicates, as well, the various concepts and characteristics, dealt with the Arabic language.

- The second dimension comes out in view of the concept that early Arab linguists tended to mean by phgonological variation of pronouncation and articulation.

It concludes that early Arab lingusts had known many theories concerning language system which appear in modern linguistics.

Keywords: Suprasegmental Phonems, Linguists, Intonation, Stress, Length, Juncture.

* Department of Arabic Language, Faculty of Arts, University of Jordan. Received on 14/1/2008 and Accepted for Publication on 17/11/2008.